نامية للعربية والفارسية ، وذلك هو الوضع الطبيعي التاريخي الذي تقره الروح العلمية المحضة أيضا ، ولكن حدث بعد الاستقلال أن تيار القومية الهوجاء جرف بالمكانة المرموقة للغة العربية حتى تركها كالمعلقة، لا هي اجبارية (وقد كانت دراسة احدى اللغات الكلاسيكية — العربية والفارسية والسنسكريتية — اجبارية الى حد الشهادة الجامعية — B.A. أيام الانجليز) ولا أحد يختارها باختياره وفي الوقت نفسه قفزت اللغات المحلية (« القومية » كما تلقب في الغرب تفخيما وتمجيدا) الى القمة حتى أصبحت اجبارية وادعت الاستغناء عن العربية خاصة بينما رضيت بالتعايش مع الانجليزية كلغة اجبارية أخرى — وانتهى الامر بما لم يكن في الحسبان ، أعني الاستغناء عن العربية في مجالات لا غنى عن العربية فيها ، الا وهي العلوم الدينية والتاريخ الاسلامي والفلسفة الاسلامية .

على كل حال بقيت أقسام اللغة العربية في الكليات والجامعات الحديثة منذ الاستقلال تتلمس الطرق لتأدية وظيفتها ، وكان الجو العلمي في الكليات والجامعات الحديثة مساعدا لتغيير مقررات الدراسة حسب التوسع في احياء ونشر التراث العربي القديم وادخال المواد الجديدة مثل تاريخ الآداب ومقاييس النقد الادبي والادب الاندلسي والادب الحديث — كل هذا بخلاف الجمود والقصر على كتب بعينها في المدارس القديمة — وكانت النتيجة ان المتخرجين من الجامعات توسعوا في دراسة الآداب بأصنافها المختلفة مع ربطها بالتغييرات الاجتماعية والتيارات الادبية في اطار التاريخ العام وحصلوا على قدر من الذوق الادبي مع الاخذ بمناهج البحث والتحقيق العصرية ، الا انهم بقوا على العموم ضعافا في استخدام اللغة في الكتابة والمكالمة ، وربما لم يتقنوا تطبيق قواعد الصرف والنحو في القراءة — وقد لوحظ ان معظم البحوث والاطروحات المقدمة الى الجامعات لنيل الشهادات العليا في الآداب العربية كانت مكتوبة باللغة الانجليزية على العادة المتبعة في الجامعات الغربية ، لم يتغير هذا الوضع الا في الآونة الاخيرة حيث قدمت البحوث والاطروحات الى بعض الجامعات الهندية والباكستانية باللغة العربية ، على سبيل المثال كتاب « الترك في مؤلفات الجاحظ » الذي صدر من دار الثقافة ببيروت وهو يمثل اطروحة قبلت لمنح الدكتوراه من القسم العربي بجامعة كراتشي .

المقترحات

وعلى ضوء ما قلناه آنفا عن الوضع التاريخي والواقع الملموس حاليا نخلص الى المقترحات الآتية :

المقترح (1)

من حيث ان اللغة العربية تحتل المكانة الاولى من بين المقومات الاساسية للدين والثقافة الاسلامية يجب على الحكومات في البلاد الاسلامية غير العربية أن تتبادر الى اتخاذ ما يلزم لجعل اللغة العربية اللسان الاولى بالنسبة للمسلمين عملا بقول الامام الشافعي : ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم اللغة العربية أن يتعلمها لانها اللسان الاولى (رواه السلفي باسناده) — و « اللسان الاولى » لا تعني اللغة الرسمية في الادارة ولا لغة المخاطبات اليومية ، انما تعني أن تكون العربية هي المتفوقة على اللغة المحلية (القومية) واللغة الاجنبية (الانجليزية) وما اليها في التعليم والثقافة العامة بحيث لا يعتبر مثقفا ثقافة أصيلة متكاملة من لم يتعلم اللغة العربية باتقان .

المقترح (2)

ويتبع هذا الوضع أن تلتزم وتحتفظ جميع اللغات المحلية بالخط العربي وتتراجع الحكومات والقيادات المتوددة الى الغرب القهقرى الى الخط العربي بعد ما تبين لها خطأ استبدال الخط اللاتيني به وفداحة الخسارة الدينية والثقافية المترتبة على ذلك — كذلك يجب الاسراع الى نبذ الخط غير العربي بشأن بعض اللغات مثل البنغالية وعدم التلكؤ في اتخاذ الخط العربي لها بعد ما زالت الاعتبارات السياسية التي سببت التثبت والاعتزاز بالخط غير العربي في الماضي القريب .

وهاتان الخطوتان ، أعني (1) جعل الاولوية للعربية في التعليم و (2) توحيد الخط العربي بالنسبة لجميع اللغات المحلية في البلاد الاسلامية غير العربية سيكون لهما فعاليتهما وتأثيرهما في توجيه نشأة اللغات المحلية وجهة العربية وصبغها الصبغة الاسلامية ، فان الوضع الذي سينجم عن اتخاذ الخطوتين هو أن يكون كل متعلم مثقف ، كاتب أو شاعر ، ذا لسانين — اللسان العربي واللغة المحلية — والتقاؤهما في ثقافة موحدة سيفجر مرة اخرى تلك العيون التي

طالما نبعت من العربية ورفدت اللغات المحلية بالكلمات والتراكيب والمصطلحات الفنية وقوالب التعبير والكنايات والتلميحات والاستعارات والافكار والاحاسيس ومبانى الشعر والنثر ، انما نضبت تلك العيون منذ أن تحول المثقفون من العربية الى الانجليزية أو ما اشبهها من اللغات الاوروبية .

لو تصفحنا قليلا الفارسية والتركية والاردوية لوجدناها تتسم بملامح بارزة للاستعراب ، منها

1) عدد كبير — بنسبة ستين فى ٪ واكثر فى بعض الاحوال — من المفردات — الاسماء والصفات والافعال ومشتقاتها — المنقولة من العربية الى اللغات المحلية .

2) كذلك الالفاظ الدينية والمصطلحات العلمية والتعبيرات العلمية الدقيقة والادبية اللطيفة المنقولة بالحرف او المأخوذة بالمعنى عن العربية .

3) ثم النسج على منوال الآداب العربية فى انشاء الآداب المحلية ، خذ مثلا الشعر بأوزانه وبحوره واقسامه من القصيدة والغزل — انما تسنى مثل هذا الاتصال بين اللغات المحلية والعربية لان الكتّاب باللغات المحلية كانوا تعلموا اللغة العربية بالدرجة الاولى فاقتبسوا منها ما يلقحون به اللغات المحلية ويطورونها لخدمة الاغراض الدينية والثقافية الاسلامية ويصدق هذا قليلا او كثيرا على جميع اللغات المحلية المتداولة بين المسلمين فى مختلف البقاع ، لا فرق من حيث جوهر القضية ، انما الفرق فى المقدار فقط .

انما اكّدت هاتين الخطوتين لكونهما لا بد منهما لاسترداد المكانة اللائقة باللغة العربية فى برامج التعليم القومية فى البلاد الاسلامية غير العربية وهما تمهدان السبيل للمقترح الثالث ، وهو :

المقترح (3)

الاستنكار الشديد للاتجاه السائد فى البلدان الاسلامية غير العربية الى الاستغناء عن العربية وتدريس المواد الدينية الاسلامية باللغات المحلية او الاجنبية مثل الانجليزية — يستوجب هذا الاتجاه الاستنكار الشديد لكونه مخالفا للغرض الدينى ومناقضا للاقدار العلمية البحتة — اذن يتحتم على جميع الجهات المعنية بالامر أن تتبادر الى تصحيح الاوضاع حتى يعم تدريس المواد الاسلامية كلها بالنصوص العربية لا غير ، يستثنى من هذا الاصل المرحلتان الابتدائية والثانوية اللتان يلقن فيهما الطالب تعاليم الدين المبسطة باللغة التى نشأ على تداولها وفهمها بينما يجرى اعداده لدراسة وفهم النصوص العربية فى مرحلة التعليم العالى .

والمواد الاسلامية هى بالتفصيل : القرآن والحديث والتفسير ومصطلح الحديث والفقه والاصول — هذه هى المواد الدينية الاصيلة التى لا ينبغى ولا يتأتى تدريسها الا عن النصوص العربية فقط .

وهناك بعض المواد فى المرتبة الثانية ينبغى لطالبها كذلك أن يكون على استعداد للرجوع الى المصادر العربية الاصيلة وان لم يدرس المادة عن النصوص العربية تماما ، مثل التاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية اذا درسهما الطالب (من غير تخصص فيهما) كجزء من تاريخ العالم والفلسفة العامة .

فاذا تبوأت العربية المكان اللائق بها وحظيت بالاحترام والتقدير بالنسبة الى اللغات المحلية والانجليزية وما اليها — تلك اللغات التى لم تزل منذ عهد الاستعمار ولا تزال حتى بعد الاستقلال السياسى تنازعها وتناوئها وتزحزحها عن مكانها فى برامج التعليم القومية — نعم ! اذ ذاك يجب اتخاذ التدابير لسد النقص فى الاوضاع الحالية :

فأولا : فئة المتخرجين من المدارس الاهلية الدينية العربية وهم الذين افنوا اعواما طوالا فى دراسة اللغة العربية بالطريقة القديمة المعروفة بـ « طريقة القواعد والترجمة » وهى الطريقة التى كانت متبعة فى تدريس اللغات الاجنبية — ولا سيما الكلاسيكية القديمة — فى اوربا ايضا الى وقت قريب ، يتقن الطالب بموجب هذه الطريقة الصرف والنحو ويحصل له المقدرة على فهم النصوص ، انما ينقص هذه الفئة :

ا) التمكن من استخدام اللغة فى الكتابة والانشاء وفى الخطابة ، ولا سيما المكالمات اليومية .

ب) التوسع فى الاطلاع على الآداب القديمة .

ج) الآداب الحديثة مهملة عندهم تماما ، وربما لا يقفون على شىء منها .

د) تاريخ الآداب والاطار العام من الاحوال السياسية والاجتماعية التى اثرت فى نشأة الآداب ووجهتها وجهتها الخاصة .

هـ) النقد الادبى — اصوله ومناهجه .

وبما أن السبب الرئيسى فى وجود هذا النقص —

ما عدا طريقة التعليم القديمة — هو انعدام البيئة التى تحرك الطبع وتضطر الطالب الى تطبيق واستعمال مواهبه ومكتسباته اللسانية فى الاحوال الواقعية ، ويلاحظ ان ابشع ما يترتب على انعدام البيئة الملائمة من الآثار هو النطق المحلى المحرف للكلمات العربية مع مخالفة جميع آداب الكلام الصحيح من الضغط وارتفاع الصوت وانخفاضه فى المحل المناسب — وربما تكثر هذه الظاهرة فى الهند والباكستان فان النطق فى جنوب شرق آسيا اقرب الى الصحة والى اللهجة العربية — ومن الغريب ان مرجع ذلك ربما كان وجود الكلمات العربية بكثرة كاثرة لكن بصورة محرفة فى المعنى ومشوهة فى النطق داخل الاردوية مما يسبب الخطأ فى التعبير وصوغ العبارة ايضا فى احيان كثيرة بينما اعتنى مسلمو جنوب شرق آسيا بالقراءة والتجويد عناية خاصة شاملة للمدن والقرى ومعتمدة على العرب الخلص فجاءت لهجتهم اقرب الى اللهجة الصحيحة .

المقترح (4)

على كل حال بما ان المهم هو ايجاد بيئة عربية فالأولى اقامة معاهد فى البلدان العربية نفسها وتنظيم دراسات خاصة بها بالنسبة لهؤلاء المتخرجين من المدارس الدينية العربية فى البلدان الاسلامية غير العربية ، تكون مدة الدراسة فى تلك المعاهد الخاصة من سنة الى سنتين ، وتتكون مواد الدراسة كالآتى :

أ) تمرينات فى النطق وقراءة النصوص ودروس فى علم التجويد .

ب) تمرينات فى الخطابة والكتابة والانشاء .

ج) دراسات عامة توسعية فى الآداب القديمة .

د) دراسات فى الادب الحديث .

هـ) تاريخ الآداب العربية .

و) النقد الادبى .

يرجى أن يكون هؤلاء المدربون فى بيئة عربية خالصة داخل بلد عربى خير عون فى رفع مستوى اللغة العربية وتعميمها بعد رجوعهم الى أوطانهم ومن المؤكد انه لا حاجة بهم الاّ الى الفصحى فلا يورّطوا ولا يضيّع وقتهم فى تحصيل اللهجات الدارجة بصورة تعمدية .

ثانيا : فئة المتخرجين من الاقسام العربية فى الجامعات الحديثة — ماذا ينقصهم ؟ هم ايضا يعانون من انعدام البيئة العربية مثل ما يعانى منه الفئة السالفة الذكر — انما يزيد فى نقصهم انهم من حيث المجموع ضعاف فى الصرف والنحو من الناحيتين العلمية والعملية بينما هم يتفوقون على غيرهم بالتوسع والتنوع فى دراسة الأدب القديم ودراسة الأدب الحديث كمادة مستقلة والالمام بمبادىء النقد الادبى .

المقترح (5)

فالاولى بهم ايضا أن يلتحقوا بالمعاهد الخاصة المقترح انشاؤها فى البلدان العربية — انما ينبغى أن تنظم لهم صفوف خاصة بهم فى بعض المواد مع تغييرات فى المقررات والمناهج حسب ظروفهم واستعدادهم .

هذا ومن واجب الحكومات والادارات المحلية تهيئة الفرص للاساتذة فى المدارس العربية القديمة والكليات والجامعات الحديثة لان يستفيدوا من الالتحاق بالمعاهد المذكورة ، فانهم بعد أن يتدربوا تدريبا عمليا راقيا ويرجعوا الى مناصبهم فى أوطانهم سيكونون اداة لاجراء الاصلاحات المنشودة فى برامج تعليم اللغة العربية — مناهجها ومقرراتها — وربما ينتج من تدرب الاساتذة على خطة موحدة توحيد برامج الدراسة فى المعاهد القديمة والكليات والجامعات الحديثة ولو فى نطاق محدود ، أعنى نطاق اللغة العربية وآدابها ، ولا يخلو مثل هذا التقارب من مغزى خطير بالنظر الى فشل جميع الجهود التى بذلت منذ أمد بعيد لردم الهوة السحيقة بينهما وانقاذ الامم الاسلامية من ازدواجية التعليم والفكر والعمل .

لا بد من وضع سلّم للاولوية فيما بين الخطوات العديدة لرفع مستوى اللغة العربية وتعميمها فى البلاد الاسلامية غير العربية — فمن المهم أن نضع فى الدرجة الاولى من سلم الاولوية رفع مكانة اللغة العربية فى برامج التعليم القومية وتدريب الاساتذة من الفئتين المذكورتين فيما فوق واصلاح مناهج التعليم بيد هؤلاء المدربين حتى يتم سد النقص الحالى وتكوين نواة صالحة قوية للعربية داخل الاطر القومية .

فاذا تم ذلك — وليس قبل ذلك — اتجهنا فى المرتبة الثانية الى تعليم الكبار من المتعلمين وانصاف المتعلمين

الذين تفرغوا او اعتزلوا الدراسة المنتظمة ولم يتفق لهم تعلم العربية أثناءها ، وهم ينقسمون الى قسمين : قسم يرغب فى تعلم العربية لاغراض التوظف والتكسب والاقامة فى البلاد العربية ، والقسم الآخر يريد الاستزادة من الثقافة الدينية والادبية فحسب ·

اما الذين يرغبون فى العربية لدعم مؤهلاتهم للتوظف والتكسب فهم فى الغالب فنيون متخصصون فى حقول شتى مثل الطب والهندسة واعمال البنك ، وقد كثر ولا يزال يكثر عدد المهاجرين منهم الى البلدان العربية منذ ازدياد دخلها من البترول وانتعاش حركة التعمير والبناء فيها ·

والفكرة تستحق التقدير والتشجيع من الجانبين — جانب العربى المستخدم (بصيغة الفاعل) وجانب المسلم العجمى المستخدم (بصيغة المفعول) — فان الالمام بلغة البلد الذى يعمل فيه لا بد وان يزيد فى كفاءة العامل ، ومن وراء ذلك يجنى من العربية فوائد اخرى عميقة الاثر فى ربط اجزاء العالم الاسلامى بعضها ببعض، فان الاستعراب والاسلام بقيا متلازمين فى القرون الاولى من تاريخنا ، وليس الوضع الحالى الاّ وليد الاستعمار الذى لا نزال نتمسك بمخلفاته ورواسبه فى الفكر والثقافة عن طواعية منا ، فمن المخجل ان يتفاهم مسلم مع مسلم آخر عن طريق لغة اجنبية عنهما مثل الانجليزية حتى فى المؤتمرات التى تعقد باسم الاخوة الاسلامية وللتنويه والاشادة باصالة المسلمين فى مختلف المجالات — وقد اتفق لى ان التقيت بمسلمين اعاجم شغلوا مناصب كبيرة لاعوام طويلة فى البلدان العربية وامتازوا بالكفاءة والامانة فى تادية خدماتهم الا انهم بقوا كاجانب فى المحيط العربى لعدم المامهم باللغة العربية ، فهذه خسارة عظيمة ان تقتصر العلاقة بين مسلمين اثنين على الخدمة والاجرة فقط بدون أن تستغل فرصة التقائهما لتعميم الوسيلة المثلى اعنى العربية لتبادل الافكار وتقوية أواصر الصداقة حتى ترتفع الكلفة بينهما بصفة اخوية ثابتة ·

المقترح (6)

فالغرض انه يجدر بنا أن نقيم داخل البلاد الاسلامية غير العربية معاهد خاصة لتعليم اللغة العربية لهؤلاء المرشحين للوظائف والاعمال فى البلدان العربية — ويلاحظ فى هذا الصدد :

ان هؤلاء المرشحين حائزون على شهادات عالية كل فى دائرة اختصاصه وهم متعلمون مثقفون نضجت عقولهم واستكملت مواهبهم ، منها موهبة تعلم اللغة الاجنبية مثل الانجليزية والفرنسية وتذوق الآداب العالية ·

اذ لا يناسبهم الطريقة المعروفة بالطريقة المباشرة (Direct Method) وهى الطريقة التى يباشرها الطفل حينما يتعلم اللغة من امّه ، يأخذ الكلمات والجُمل ويحاكى امه فى النطق بها فى ظروف معينة تبعثه على التجاوب معها ، والطفل لا يأبه للقواعد ولا يتلقه التغييرات التى تطرأ على كلمة واحدة فى احوال مختلفة بل يخزنها ويستعيدها فى ظروف متشابهة اذا دعت الحاجة اليها بدون أن يهتدى بأصول مدونة لها ·

ولكن الحال يختلف تماما مع الذين تجاوزوا سنّ الطفولة فاعتادوا الاهتداء بالاصول المدونة فى تعلم العلوم المختلفة واللغات الاجنبية وقد جرّبتُ أنا بنفسى ان كبار السن من المتعلمين امثال طلاب الجامعة كلما لاحظوا الاعراب بالرفع تارة وبالنصب والجر تارة أخرى لا يلبثون أن يسألوا عن الاصل الضابط لتلك الظاهرة ·

فالطريقة التى تلائم كبار السن من المثقفين هى الطريقة « الواعية لضوابط اللغة »
(cognitive code learning)

وتلك الضوابط تساعد المتعلم الواعى لها على التقدم من المحاكاة المجردة الى الخلق والابداع فى التعبير اذا اصطدم بظروف لم يسبق له تجربتها من قبل — فالضوابط هى كالاقليد للتغييرات والاستحالات فى اللغة (Transformational grammar)ومن الطبيعى ان يحرص على اقتنائه كل من بلغ رشده ونضج عقله ·

ولكن الامر ليس بصعب ولا داعى للتوحش من القواعد اذا أحسن عرضها وافهامها عن طريق الاكثار من الامثلة وتمكين الطالب من الملاحظة والاختبار والتأكد بنفسه ، فان مظاهر اللغة كمظاهر الطبيعة فى الكون ، وهل علم الطبيعة والعلوم الاخرى المتعلقة بالنبات والحيوان الاّ الاهتداء الى سنن الله او النواميس الفطرية الجارية فى الكون — وحقا قيل ان قواعد اللغة العربية على الاخص تشكل « علما » بكل معنى الكلمة فان قواعدها مطردة اطراد نواميس الكون يمكن الاعتماد عليها فى معظم الاحوال بخلاف كثير من اللغات العصرية التى لا تسير على قاعدة شاملة ·